العدد الثاني والعشرون
2005

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1373 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2005 مسيحي

- المادّية في فكر المذاهب المعاصرة
- مكوّنات البنية وسمات الخطاب
- الفتوى بين النصّ الفقهيّ والواقع
- حقوق الإنسان في الإسلام

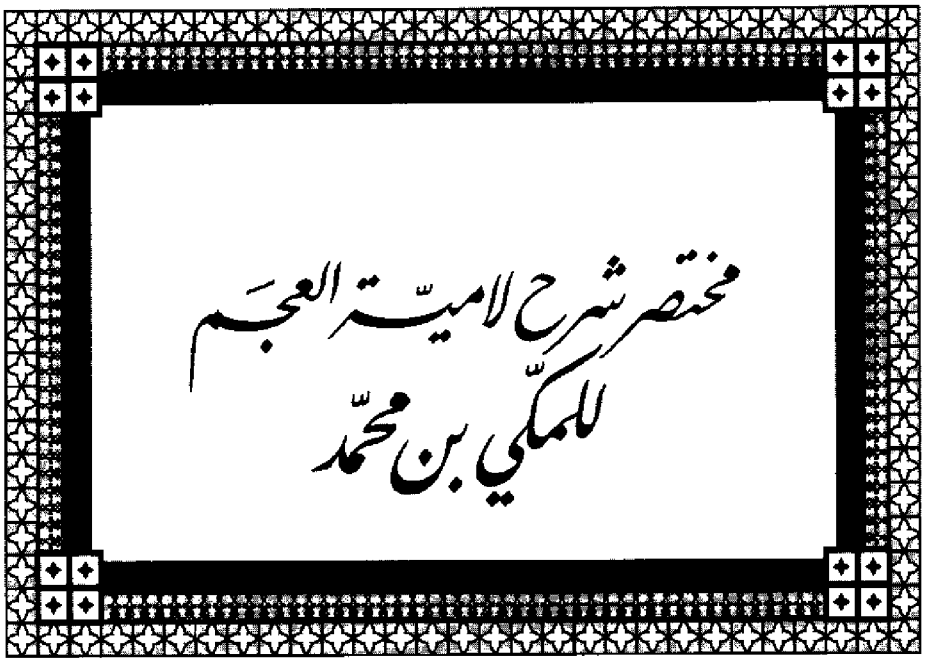

د. عبد الله علي الصويعي
جامعة الفاتح - كلية الآداب

القسم الأول

التعريف بصاحب المختصر:

هو الشيخ الإمام العلامة الهمام العارف الرباني والولي الهمداني، الشريف الحسني العلمي، مولانا المكي بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله الشريف[1].

هذا كل ما ظفرت به عن صاحب هذا المختصر، وقد تنقلت ـ أثناء

(1) ينظر الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، بو جندار، ص340.

دراستي بالرباط ـ بين مكتباتها متصفحاً كتب الأعلام والتراجم المغاربية فلم أجد شيئاً يذكر عنه ولا عن عصره.

ولا شك في أنه عالم له باع في اللغة والأدب، وله اهتمام بالتراث القديم، يدل على هذا إشارته في مقدمة هذا المخطوط إلى أنه شرح لامية العجم لفخر الكتاب الطغرائي، شرحاً لطيفاً، ثم بعد زمن ظفر بشرح الفاضل العلامة أبي جمعة سعيد بن مسعود الماغوسي فاقتطف منه لب المعنى في ورقات هذا المختصر، فجاء شرحاً موجزاً.

التعريف بصاحب الشرح:

هو أبو جمعة سعيد بن مسعود الماغوسي الصنهاجي، من أهل مراكش، ولد بعد 950هـ، وأخذ عن أعلام المغرب، وله رحلة إلى المشرق، أدى فيها فريضة الحج، وأخذ هنالك عمن لقيه من أعيان أهل المشرق، وعن أهل مصر والحجاز والشام وغيرها، وهو معدود من كتاب أحمد المنصور الذهبي، ومن تأليفه: نظم الفرائد الغرر في سلك فصول الدرر، شرح به درر السمط في مناقب السمط، لابن الأبار وشرح مقصورة المكودي، وشرح التصريف وإيضاح المبهم من لامية العجم، وإتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب[2].

ما كتب عنه لا يعدو أن يكون إشارات مقتضبة، وجملاً مكرورة في كثير من الأحيان، إذا استثنينا المقرى الذي كان حديثه عنه ضافياً[3]، وتتفق المصادر التي ترجمت له في أن ولادته كانت بعد سنة 950هـ، وأن وفاته كانت بعد سنة 1016هـ.

وهذه الفترة التي عاشها الماغوسي تشمل الفترة المهمة من تاريخ الدولة السعدية.

---

(2) ينظر ترجمته في روضة الآس، ص70، 226 ـ 239. ودرة الحجال 2/ 475، والأعلام للزركلي 3/ 155، ومعجم المؤلفين 4/ 332.

(3) روضة الآس ص226 ـ 239.

وأما ماغوس التي ينتسب إليها فنرجح أنها تلك التي تقع في إقليم تامسنا الذي كان تابعاً لمملكة فاس، والذي يبتدئ غرباً عند أم الربيع وينتهي إلى أبي رقراق شرقاً، والأطلس جنوباً، وشواطئ البحر المحيط شمالاً[4].

يقول ابن الخطيب في (ماغوس) وقد قضى بها ليلة سيئة[5]:

ماذا لقينا بماغوس من اللغط ليلاً ومن خرس الأجراس والشرط
ومن لغات حوالينا مبربرة كأننا ببلاد الزنج والنبط

التعريف بالطغرائي ولاميته:

هو العميد مؤيد الدين فخر الكتاب أبو اسماعيل، الحسين بن علي بن محمد ابن عبد الصمد الأصبهاني المعروف بالطغرائي، بضم الطاء وسكون الغين، نسبة إلى من يكتب الطغرى، وهي الطرة التي تكتب في أعلى الكتب، فوق البسملة، تتمضن نعوت الملك وألقابه، وهي لفظة أعجمية.

وللطغرائي ديوان شعر جيد، حققه الباحثان الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبوري، يضم مجموعة من القصائد والمقطوعات أحسنها قصيدته المعروفة بلامية العجم، عملها ببغداد سنة خمس وخمسمائة، يصف فيها حاله ويشكو زمانه، سميت لامية العجم تشبيهاً لها بلامية العرب للشنفرى، لأنها على شاكلتها، وقد جاءت محاكاة لها في حكمها وأمثالها، حتى قيل إن لامية العجم لم تقل عفواً وإنما حاول صاحبها تقليد لامية الشنفرى (لامية العرب) في الشكل والمضمون، أما في الشكل فقد اختار الطغرائي القافية نفسها التي نسج عليها الشنفرى، وأما في المضمون فقد حرص على المنهج النفسي للشنفرى والذي عماده الغضب على الناس وهجرهم والرحيل عنهم، يقول:

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

---

(4) وصف أفريقيا، للحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الأفريقي تعريب محمد الأخضر، ومحمد حجي، ط الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، 1/ 194.

(5) ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله، ط القاهرة 1981، 2/ 267.

فلا صديق إليه مشتكى حزني ولا أنيس إليه منتهى جذلي
فسر بنا في ذمام الليل معتسفاً فنفحة الطيب تهدينا إلى الحلل

وهذه الأبيات تعد تكراراً لقول الشنفرى:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرحل

وإذا كان الطغرائي قد حاول تقليد لامية العرب ومحاكاتها، إلا أن شاعريته لم ترق أو تصل إلى مستوى شاعرية الشنفرى، ولاميته لم تحض بما حضيت به لامية الشنفرى، وسيظل الفرق بينهما بيناً واضحاً حتى أن العلماء والنقاد لم يقيموا مجرد موازنة بين اللاميتين.

وصف المخطوط:

هذا المخطوط عثرت عليه عنه إحدى الأسر المغربية بالرباط، وذلك عندما كنت طالب دراسات عليا لتحضير درجة الدكتوراه، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط.

والمخطوط منسوب إلى المكي بن محمد بن علي، وهذا ما تشير إليه الصفحة الأخيرة من المخطوط، وفيها: «وهنا انتهى المقصود بمعونة الله والحمد لله رب العالمين، بقلم مؤلفه الفقير إلى ربه الغني، المكي بن محمد بن علي، كان الله له خير ولي، ثم رقم الشرح في يوم الثلاثاء 3 من ذي الحجة عام 1352 بخط كاتبه أفقر الخلق إلى مولاه عبد ربه محمد بن المكي بن ناصر العوفير، غفر الله له ولوالديه ولأشياخه، ولجميع المسلمين الذنوب، وستر عنهم العيوب، بجاه خير البرية سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية والحمد لله رب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

إذن نسبة المخطوط واضحة للمكي بن محمد، ولا شك في أنه عالم باللغة وغريبها يشهد له بذلك فصاحة أسلوبه وقوة عبارته ووفرة شواهده.

أما تاريخ نسخه فكان في يوم الثلاثاء 3 من ذي الحجة عام 1352 وناسخه هو محمد بن المكي بن ناصر العوفير، كما هو واضح في الصفحة الأخيرة من هذا المخطوط.

أما عدد ورقات المخطوط فبلغت اثنتين وعشرين ورقة قياس 23 × 18، في كل صفحة ستة وعشرون سطراً، وفي كل سطر ما بين عشر واثنتي عشرة كلمة، أما نوع الخط فهو خط مغربي، تصعب أحياناً قراءة بعض كلماته، والخط واحد منذ البداية وحتى النهاية، وقد تميزت الأبيات بخط لونه مغاير، فأبيات اللامية كتبت بخط أحمر وبقية الأبيات الأخرى كتبت بخط أخضر، والمخطوط لا يحتوى على تعليقات في الهوامش، ولا على إجازة سماع، ولا على اسم من تملك هذا المخطوط، أو وصل إليه، وهذه النسخة هي الأصل، ولا نعلم عن وجود نسخة أخرى من هذا المخطوط.

وقد رجعت في تحقيق هذا المخطوط إلى ديوان الطغرائي الذي اعتنى بتحقيقه الدكتور علي جواد الطاهر، والدكتور يحيى الجبوري وقارنت بين ما جاء في المخطوط وما جاء في الديوان المطبوع فوجدت بعض الاختلافات في رواية بعض الأبيات، أو في رواية بعض كلماتها، وبينت ذلك في الهامش.

القسم الثاني

النص المحقق:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

فقد كنت شرحت فيما مضى لامية العجم لفخر الكتاب الطغرائي أبي اسماعيل الحسين بن علي بن محمد الأصفهاني ـ رحمه الله تعالى ـ شرحاً لطيفاً، ثم بعد ذلك بأزمان ظفرت بشرح الفاضل العلامة الرحلة أبي جمعة سعيد بن مسعود الماغوسي الذي قال فيه الكاتب الفشتالي[6] ـ رحمه الله ـ إنه مما

(6) هو عبد العزيز الفشتالي، من أهل فاس وأصل سلفه من فشتالة قبيلة جبلية، انجبت أشهر =

تميس به خزانة السلطان أحمد المنصور[7]، على سائر الخزائن الملوكية[8]، فاقتطفت منه لب المعنى في هذه الورقات، فجاء شرحاً موجزاً إلى الغاية أسأل الله النفع به آمين، قال رحمه الله:

أصالة الرأي صانتني عن الخَطَلِ وحِلْيَةُ الفضل زانتني لدى العَطَلِ

مراده أن يبين أن رأيه الأصيل الصادر عن عقله الجليل، هو الذي حفظه من أن تضطرب حين الولاية أحواله، وأن تجري في ميدان الخطأ والفحش أفعاله وأقواله، والذي كسا من حلل الفضائل وسوابغ أردية المعارف، هو الذي أورث له وصف الزينة لما عري جيده من أطواق الشفوف والمطارف، فالعطل كناية عن طرده عن الوزارة، وإهانة الدهر له بعد أن كان ملحوظاً منه بعين العناية، فالغرض من البيت إظهار[9] التجلد للعدو، وعدم اكتراثه بالحوادث، وإن أوردته موارد الردى إلا أنه طود حلم وبحر علم لا تحركه عواصف اللأواء[10] ولا يكدر صفوه اختلاف الدلاء، كما قال ابن دريد[11]:

لا تحسبنْ يا دهر أني ضارع لنكبة تعرقني عرق المدا

= وزراء وكتاب الدولة السعدية، ولد سنة 956هـ، من شيوخه أحمد المنجور وعبد الواحد الحميدي وأحمد الزموري، من تأليفه: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، وكتاب تقديم الإمام في فن التورية، ومدد الجيش، ذيل به جيش التوشيح لابن الخطيب، وترتيب ديوان المتنبي، توفي سنة 1031هـ، ينظر ترجمته في: نشر المثاني 1/ 140، وروضة الآس ص112.

(7) هو أبو الحسن مولانا أحمد المنصور أمير المؤمنين عالم الأمراء وأمير العلماء، فخر سلاطين الدولة السعدية، أحد ملوك المغرب، له قدم راسخ في كل فن، ولد بمدينة فاس سنة 956، ألف برسم خزانته مئات الكتب، وأجاز عليها مؤلفيها من مغاربة ومشارقة، وعربت في أيامه بعض مؤلفات الأوروبيين، وكان بلاطه غاصاً بالشعراء وبلغاء الكتاب، توفي سنة 1012هـ، ينظر ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة 1970 ج1 ص106، وما يليها، وينظر الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين لمحمد حجي منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر 1976، ج2 ص386 وما بعدها، ومقدمة روضة الآس للمقرى.

(8) مثل الخزانة المنصورية، خزانة أحمد المنصور الذهبي، ينظر روضة الآس ص69 ـ 70.

(9) وردت في المخطوط أظهر، وهو تحريف.

(10) اللاواء: المشقة والشدة.

(11) ينظر شرح مقصورة ابن دريد، ط المكتبة الشعبية بيروت ـ لبنان ص24.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد فقد تشرحت فيما مضى لعبية العجم بحل الكتاب الشعراوي لأبي اسماعيل الحسيني بن علي بن محمد الأقحصاني رحمه الله تعالى شرحا لطيفا ثم بحمد ذلك بازماني ظفرت بشرح الفاضل العلامة الرحلة أبي عبد الله محمد بن سعيد بن مسعود الماغوسي الفاسي فرأيته الكاتب الفاضل الذي وفقه الله انه مواتيه به خزانة السلطان أحمد المنصور على سائر الخزائن العلمية فاقتطعت منه لبّ المعنى بحذف الوريقات فجاء شرحا موجزا الى الغاية اسأل الله النفع به كما بي فأقول رحمه الله

اعالة الرأي عانتي عن الخطأ وحلية العقل زانتني لدى العقلاء

مراده ان يبين ان رأيه لا يميل الصادر عن عقله الجليل صوابه في حقه من ان تضطرب حين الآراء بل احواله وان تجري في ميدان الخطأ والبحث اعماله وافواله والتي تحسن من حلل الفضائل وسوابغ ارديه المعارف هو الذي اورث له وصف الزينة كما مر في جبذه من الطوائف الشيوف والمعارف فالعقل كناية عن تجرده عن الوزر والاثام فالدهر له عيان كان ملحوظا منه بعين العناية بالغ في البيت الأخير التعلم للعدو وعم المتراثة بالحوادث وان اورثته موارد الردى الا انه طوع حلم وبحر علم لا تحركه عواصف اللأواء ولا يغير صفوه اختلاف الآراء كما قال ابن حريث

لا تحسبن يا هرم أني ضارع ٭ لشبيبة تعرفني عرض المراء

وقال العدل

وتجلدي للشامتين أريهم ٭ أن لريب الدهر لا أتضعضع

واسناد صانت وزانت الى ضمير اعالة الرأي وحلية العقل مجاز عقلي وهو اسناد الفعل او معناه الى ما هو له غير ما هو له بتأول اي بان ينصب المتكلم قرينة تصرف الاسناد عما هو له الى غيره والاشك ان العقل يجيل

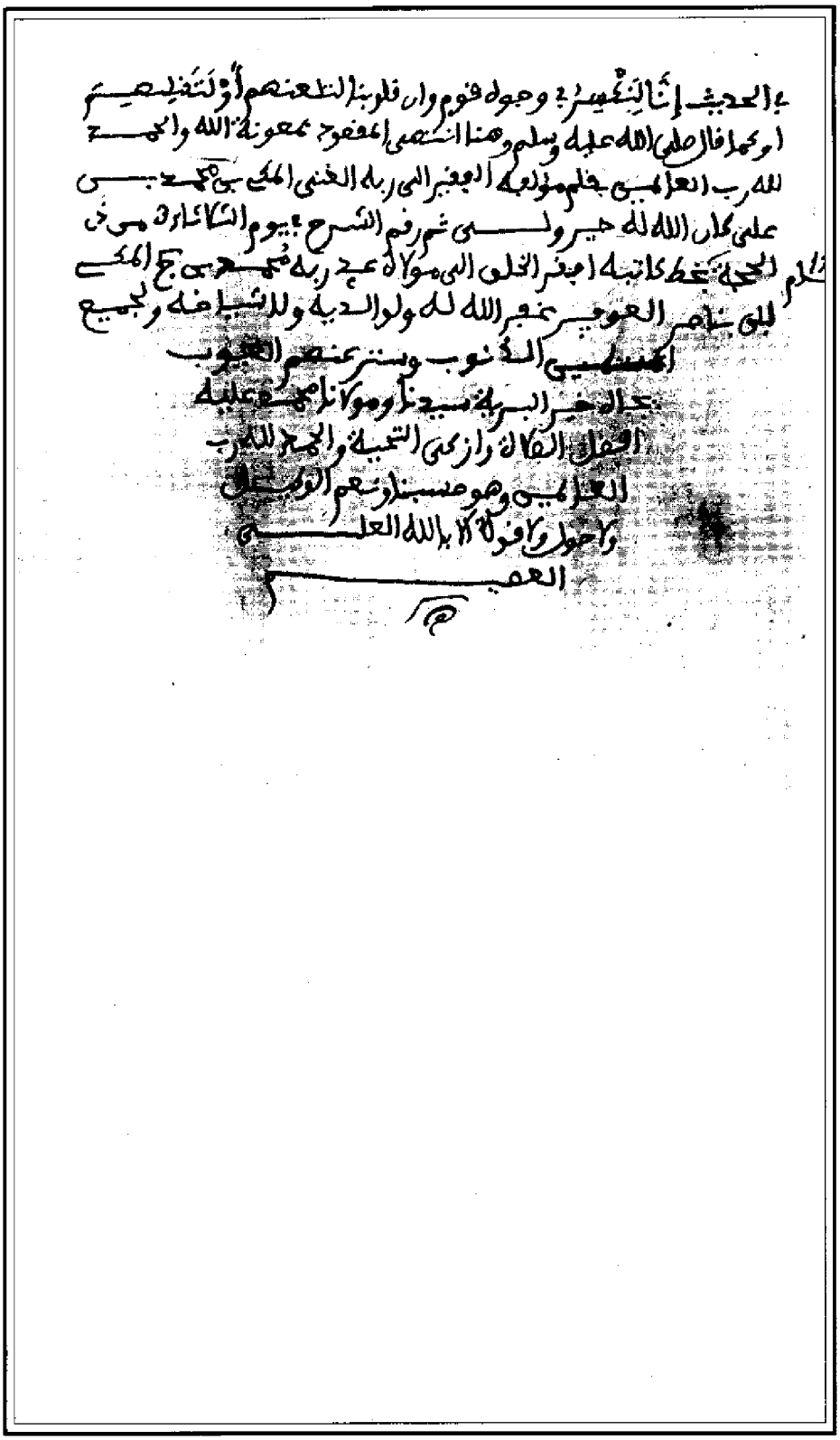

وقال الهذلي[12]:

وتجلدي للشامتين أريهمُ أني لريب الدهر لا أتضعضع

وإسناد صانت وزانت إلى ضمير أصالة الرأي وحلية الفضل مجاز عقلي، وهو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له، غير ما هو له بتأول، أي بأن ينصب المتكلم قرينة تصرف الإسناد عما هو له إلى غيره، ولا شك أن العقل يحيل صدور الحفظ عن أصالة الرأي والزين عن حلية الفضل بحسب الحقيقة، وإنما يصدق بأن الحافظ والمزين الله تعالى، لكن لما كانت لسببين في الفعلين أسندهما إليهما لنوع من المبالغة عن حد، وإذا تليت

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل

مراده أن يبين أن ما استحق من أجله أن يتصف بالشرف والرفعة من كرم عنصره وتحليه بالفضائل التي انفرد بها في عصره أمر ذاتي لا ينفك عنه، فسؤدده على كل حال باق يستوي فيه آخر أمره لما تعرى من الولاية مع أوله لما كان متلبساً بها، فهو كالشمس في عدم التفاوت بين وقت الضحى والعشى، فالطفل اسم للعشى إذا مالت الشمس للغروب، والبيت شبيه في المعنى بقول المعري يمدح بعض رؤساء زمانه بعد أن ذكر جملة من أوصاف مجد أبائه وعدة من وقائع كرم أوائله:

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم بعد الممات جمال الكُتْبِ والسِّيَرِ

---

(12) البيت لأبي ذؤيب الهذلي من قصيدته العينية المشهورة:

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وقال الأصمعي: يخلط هذا البيت بقصيدة متمم أو مالك بن نويرة التي على العين، وقد جاءت في المفضليات التاسعة، ومطلعها:

صرمت زنيبة حبل من لا يقطع حبل الخليل وللأمانة تفجع

ينظر شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد السكري، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مراجعة محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ج1 ص10. والمفضليات، ط دار المعارف، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، ص48.

وافقتهم في اختلاف من زمانكمُ والبدر في الوهن مثل البدر في السحر[13]

فيم الإقامة بالزوراء لا سكني بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

تعجب من حاله وعدم انتفاعه بأصيل رأيه، حيث اختار الإقامة بالزوراء، يعني بغداد، ولم يؤثر القصد إلى العز الموجود في التنقل بين البلاد، مع أنه لا زوجة له فيها ولا ولد، ولا لسبب من الأسباب التي يكون عليها حال الإقامة المعتمد، هذا إن حملت الزوراء على أنه أراد بها بغداد، وهي من أسمائها، لأن أبوابها الداخلة جعلت مزورة عن الخارجة، وإن حملت على البعيدة من الأراضي، وأريد أنها كناية عن الموضع غير اللائق به، فالمراد حينئذ التعجب من ملازمته لمكان لا تليق الإقامة بمثله فيه وأنكر صدور ذلك من نفسه على وجه السآمة والضجر، كما يقول المقيم بمكان يحتويه ما أضيع ها هنا، والوجه الأول ملائم لقول من قال إنه قال: هذه القصيدة وهو ببغداد، والأخير ملائم لقول من قال قالها بالبادية وهو هارب من السلطان محمود بن محمد السلجوقي[14] أخي مخدومه السلطان مسعود[15].

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد كالسيف عُرِّيَ متناه عن الخلل

بَيَّنَ وجه تبريه من الزوراء، والمعنى لأي شيء إقامتي بها، وأنا غريب فيها، لست من أهلها، خالي الكف من المال، وليس لي من آوى إليه من أهل أو مال، وشبه حالته هذه بحالة السيف المعرى من حلله التي تزينه عند الناظر في بادي الرأي في نبو العيون عن كل منهما، بحيث لا يلتفت إلى كليهما إلا

---

(13) سقط الزند، لأبي العلاء المعري، دار صادر بيروت 1992، ص59.

(14) هو أبو القاسم محمود بن سبكتكين، يلقب بسيف الدولة، ويمين الدولة وهو ممثل لدولة الغرناويين، وقائد ورجل سياسة قدير، تولى بلاد خراسان كما لقب ولي أمير المؤمنين، توفي في ربيع الآخر سنة 422هـ، ينظر زبدة التواريخ (أخبار الأمراء والملوك السلجوقية) لصدر الدين أبي الحسن علي بن ناصر الحسيني، المتوفى بعد 622هـ، تحقيق د. محمد نور الدين، دار اقرأ، بيروت 1985، ص26، 28.

(15) هو مسعود بن محمد السلجوقي، كان يلقب بناصر دين الله وحافظ عباد الله، وظهير خليفة الله، وفي عهده امتدت امبراطورية الغرناويين من لاهور حتى سمرقند وأصبهان. ينظر المصدر نفسه ص27، 171.

من يعرف خصاله المحمودة ومن كانت هذه حالته فلا معنى لإقامته.

إذا نكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي على سواد[16]

فهذا البيت وما قبله في معنى الاعتذار لما ذكر بعد من تحمله لمشاق الأسفار، واقتحامه لمهلكات المفاوز والأخطار.

فلا صديقٌ إليه مشتكى حزني ولا أنيسٌ إليه منتهى جذلي

هذا تحقيق لما دل عليه كلامه قبل، من الابتلاء بالوحدة والإصابة بالتعري من ثبات الجدة، والمعنى أنه بلغ عن ذلك إلى حيث لا يجد صديقاً محقاً يشتكي إليه بأحزانه، فيساعده على الخطب، أو يواسيه أو يرق لحالته، فيعظه ويسليه، ولا أنيساً يرتاح إلى موانسته، ويفضي إليه بالأمور التي تسره عند مجالسته.

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع[17]

طال اغترابيَ حتى حن راحلتي ورحلها وقرا العسالة الذبل

يريد أن طول تلبسه بمتاعب الغربة وتحمله لأسباب الكربة أثر فيه لشدة ما يقاسيه من آخر أجله، موارد من المشقات كادت تدنيه من أجله، بل أثر ذلك لصعوبته في غير ذوي العقول والجمادات من الرحل والراحلة، وعوالي الرماح حتى اشتقن إلى الراحة وطربن، لأن يحللن من حول الإقامة الساحة، وذلك لشدة ما يقتحم بهن من المفاوز والأخطار، ويركب عليهن من متون المهامه في الأسفار.

لأستسهلنَّ الصعبَ أو أدركَ المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر[18]

---

(16) هذا البيت من أشهر شعر بشار، استشهد به علماء العربية على خلو جملة الحال من الواو، إذا كان خبرها ظرفاً مقدماً عليها، لأنه بتقدمه صار المبتدأ بعده كالفاعل، فأشبهت الجملة الفعلية فصارت جملة (على سواد) كأنها فعلية، ورواية البيت في الديوان تحقيق الشيخ ابن عاشور:

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها نهضت مع البازي على سواد

ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، نشر الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ج3، ص51.

(17) ديوان بشار بن برد ج4، ص117.

(18) هذا شاهد نحوي لا يعرف قائله.

وضج من لَغَب نَضْوي وعجَّ لما ألقى ركابي ولجَّ الركب في عذلي

يريد أن فرسه الهزيل من كثرة تعريضه للمشقة ضج لذعره إياه بمداومته على الأسفار، وسئم من مواصلته عليه ركوب الفيافى والقفار، ورفع ركابه صوته مستغيثاً من عظم ما يلقاه من الكد والتعب، واجتهد ركبه في لومه لما يتعاطاه من الكدح والنصب.

ومضمن البيت داخل تحت الغاية، أي طال اغترابي حتى حن راحلتي، وحتى ضج وهو مبالغة في وصفه نفسه بملابسته أسباب الغربة، وأنه كرع لأجلها في ماء الكربة، حتى ادعى أن ذلك ظاهر للجمادات والعجماوات، من الخيل والجمال، وأعلم أن مطلوبه هو الرياسة، ونفسه تنزع إلى ما ألفه من التلبس بالتدبير والسياسة، وما ذكره بعد مما يوهم أنه نسيب، إنما هو كناية عنها وتعليل لنفسه بأنه سيصلها عن قريب، والغرض إظهار أنه لم يأل جهداً في طلبها، وأن يمهد عذره أن فاته التمسك بسببها فمقصوده القيام في طلب المعالي، وأن مجده العالي لا يصده عن ذلك خوف السيوف المرتفعة العوالي، وقد تخيل فيه هذا المعنى وزراء الأمير المستولى على مملكة سلطانه، فسعوا بقدر مجهودهم في انطماس أنواره للأمن من نيرانه إلى أن قتل صبراً كما هو شائع مشهور، ولم يكن لذلك سبب سوى ظهور مجده المذكور.

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعُلا قِبَلي

بين السبب الحامل له على اقتحام المشاق المذكورة في البيت قبله يعني إنما اقتحم المشاق لأنه يريد أن يحصل من المال ما يبسط به من الإنفاق كفه، ويقضي به للعافي ما أوجبه منصبه وعلو همته من حقه عليه، وصيره ديناً لازماً لرقبته، وذلك غرض شريف ومقصد لذوي الهمم منيف، ربما تهان لأجله النفوس ويسهل عندها كل ما تلقاه فيه من القهر والبؤس.

والدهرُ يعكِسُ آمالي ويقنعني من الغنيمة بعد الكدِّ بالقَفَلِ

هذا إظهار للتحسر والتحزن من قلة إنصاف دهره، يعني أن الدهر يعامله بنقيض مقصوده، ويرده بما يحاوله بخلاف مراده بأن يلزمه القناعة والرضى

بالإياب من سفره بدل الغنيمة ويقابل جيش أسبابه فيما يرومه بموجبات الهزيمة، وهذه عادة الدهر مع أولى النهى والحلم، وصنيعه المألوف في أهل الذكاء والعلم.

وذي شطاط[19] كصدر الرمح معتقل بـمـثـلـه غـيـرَ هـيـابٍ ولا وكـل

مراده يبين حال صاحبه ورفيقه في سفره، وما احتوى عليه من الحسن في خلقه، وما انطوى عليه من السجايا الشريفة في خلقه لأن تخير الرفيق مندوب إليه، والمعنى رب رفيق ذي قامة حسنة كصدر الرمح في الاستقامة والاعتدال، متعلق برمح هو مثله في نفاذ الأقوال ومضاء الأفعال، ليس بجبان، كثير الهيبة من الأمور، ولا عاجز يكل أموره إلى غيره من أمير أو مأمور.

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بـشـدة الـبـأس مـنـه رِقَّـةُ الـغَـزَلِ[20]

تتمة ما اشتمل عليه صاحبه المذكور في البيت قبله من الأوصاف المطلوبة في الرفقاء، يعني أنه يسلي رفيقه بحلاوة مزاجه ويوانسه بطيب أخلاقه، ويغيظ عدوه بمرارة جده في وقت لا يحسن فيه الهزل، فهو حليم في موضع الحلم، جاهل في وقت الجهل، قد اختلطت فيه رقة الغزل بقوة الشجاعة.

طردت سرح الكرى عن ورد مقلته والليل أغرى سوام النوم بالمقل[21]

يريد أنه يمانع رفيقه النوم بمجاذبة أطراف الأحاديث ليستأنس بكلامه، ويذهب عنه بالموانسة بعض ما يجده من برحائه وشدة آلامه والحالة أن الليل من فرط طوله وشدة مقاساتهم لمسايرة المطايا ومساهرة النجوم فيه، قد أقبل بالنوم على العيون، وأغراه عليها وأولعه في التمسك بها.

والركبُ ميل على الأكوارِ من طَرَبٍ صـاحٍ وآخـر مـن خـمـر الـكـرا ثـمـل

المعنى طردت سرح الكرا عنه في حالة إغراء الليل إياه به وفي حالة كون أصحاب رفقتنا متململين على ظهور الأكوار ضجرين من مداومة السهر ومواصلة

---

(19) وردت في المخطوط (شطط) والصواب ما أثبتناه.

(20) ورد الشطر الثاني في الديوان: بقسوة البأس فيه رقة الغزل.

(21) وردت لفظة (سرح) في المخطوط (شرح)، وهو تحريف.

السير في الليل والنهار، فهم ما بين مائل على قتبه من شدة الحزن وإن كان صاحياً لما يقاسيه من شدة السفر، وآخر مائل سكران من مخامرة النوم إياه، فهو نشوان من مواصلة السهر.

فقلتُ أدعوكَ للجلّى لتنصرَني وأنت تخذُلْني في الحادث الجَلَلِ

تقريع وتوبيخ لصاحبه على ما صدر منه، يريد أنه نبهه فقال له كيف أناديك مستغيثاً بك لتنصرني في هذا الأمر الذي أستقبله وهذا الخطب الذي عزمت عليه، وأردته من طروق حي المحبوب ومقارعة أبطاله والإقدام على مصادمة الأسود من رجاله وأنت تخذلني في هذا الأمر الحقير الذي هو السلو بالحديث عن الهموم والصبر على مكابدة السهر في هذا الليل البطي النجوم.

تنام عني وعينُ النجمِ ساهرةٌ وتستحيلُ وصبغُ الليل لم يَحُلِ

تفسير للخذلان في البيت قبله، والمعنى تنام عني وتتركني أقاسي أحزاني، وأكابد في الليل الطويل أشواقي، والحالة أن عين نجمه ساهرة معي رقة علي ورحمة بي، وترجع عن العهد في المعاضدة، وتتغير عنه وسواد الليل تشاهده باقياً غير متغير بضوء الصباح، فإذا خذلتني وأسلمتني في هذا الخطب الحقير مع سهولته، فكيف أثق بك في مواطن اللقاء والكفاح وأعول عليك حيث تكون طيور المنايا نازلة على عوالي الرماح ومتون الصفاح، والغرض من هذا الكلام تحريض الرفيق على العزم والاجتهاد، وحثه على الصبر فيما هم فيه من الجَوَلان والإيغال في البلاد.

فهل تعينُ على غَيٍّ هممتُ به والغَيُّ يزجرُ أحياناً عن الفَشَلِ

مراده اختبار صاحبه بعدما أيقظه من النوم، وحرك دواعيه بما مر من التوبيخ له واللوم على عدم تمسكه بعرى العزم، والمعنى فهل لك أن تعينني على غي هممت بإتيانه، وأمر عزمت على الأخذ في أسبابه، والغي وإن كان في بادي الرأي مذموماً فهو في نفس الأمر محمود، لأنه يزجر عن الضعف، ويبعث على اتباع سبل المكارم والجود، فكأنه توهم أن رفيقه لا يساعده في اتباع الغي، حيث سماه غياً، بل ينكره عليه فيبين له فائدة الغي، ولهذا أعاده بالاسم الظاهر ليقرره في ذهنه ويمكنه منه.

إني أريد طروقَ الحي من إضِم وقد حماه رماةٌ من بني ثعل
يحمون بالبيض والسمر اللدان به سودَ الغدائر حُمْرَ الحُلْي والحللِ[22]

مراده أن يفسر الغي الذي ندب صاحبه إلى الإعانة عليه وحرك دواعيه إلى الإجابة إليه، والمعنى إني لا محالة أريد أن أطرق الحي النازل في اضم، أو الحي المخلوقين من الغضب على إرادة المبالغة، كقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[23]. وألم بساحتهم ليلاً، وإن كانت جماعة من بني ثعل قد سحبوا عليه من بأسهم وشدة شوكتهم ذيلاً يحمون فيه بكل أبيض[24] صارم مشرفي، وكل أسمر لدن سمهري، أبكاراً سود العيون والغدائر، حمر الحلي والحلل، هي ضالتي التي أنشدها، وحاجتي التي أقصدها، وكل شيء بعدها جلل، فإن كنت رفيقاً مساعداً فشمر لمصادمتهم ومقارعتهم على ساعديك، واتزر بنطاق الحزم فإن الموت الأحمر بين يديك، ولهذا الكمال غيل لأنه غير مأمون العاقبة في العاجل، بل قد انطوى في لذيذ شهده السم القاتل، وهذا شأن العشاق قديماً وحديثاً في اقتحام الأهوال ومقاساة ما دون المحبوب من البلايا، ولو أتى على النفس، وأطال الصبر على ما يلقونه من هجر الأحباء والتحمل لأذى الرقباء.

فسرْ بنا في ذِمام الليل معتسفاً فنفحةُ الطيب تهدينا إلى الحلل[25]

مراده أن ينبه صاحبه على كيفية السير إلى هذا الحي والتحيل على الوصول إلى المقصود من ركوب هذا الغي، والمعنى إذا عرفت ما اتصف به حماة الحي من استداد الرمي، وكمال الشجاعة ونجح الرأي، فالتدبير أن تسير بنا في حرمة الليل، وأخذاً بغير طريق، لأنه يسترنا ونتمكن فيه من الإلمام ويسهل أمر الطروق، ولا تخش أن تضل عنهم، فإن فعلت ما أمرتك به فإن نفحة الطيب المتضوعة من حللهم ترشدنا إلى منازلهم.

---

(22) وردت لفظة (به) في الديوان (بهم).

(23) سورة الأنبياء، الآية: 37.

(24) في المخطوط (بكل البيض) وفيه تحريف والصواب ما أثبتناه.

(25) في الديوان: مهتدياً بدلاً من معتسفاً، وبنفحة بدلاً من فنفحة.

فالحب حيث العِدا والأُسْدُ رابضةٌ حول الكناس لها غابٌ من الأَسَلِ[26]

مراده أن يبين علة الأمر لصاحبه بالسير في الليل والأخذ في غير الطريق، والمعنى أن الوصول إلى هذا المحبوب عسير، والخطب في ذلك خطير لكونه في وسط الأعادي والأسود الضارية رابضة حول كناسه مانعة من الوصول إليه، والقرب من ساحته، تسكن غاباً من حلها ورماحها، ترتعد فرائص كل قاصد من شدة شجاعتها وقوة كفاحها.

نؤمُ ناشئة بالجزع قد سقيت نصالُها بمياه الغنج والكحل[27]

مراده أن يبين السبب الحامل له على قصد الحي المذكور، والمعنى إنما قصدت في طروق الحي الذي حمته رماة من بني ثعل محبوبة ناشئة في الجزع قد سقيت سيوفها ونصولها بمياه الغنج والكحل ومراده بالنصال العيون الشبيهة بالسيوف في التأثير في قلب المحب كقول أبي الشيص:

يرمين ألباب الرجال بأسْهُمٍ قد راشهن الكحل والتهديب[28]

فقال الآخر:

بين السيوف وعينيها مشاركة من أجلها قيل للأغماد أجفان[29]

قد زاد طيبُ أحاديث الكرام بها ما بالكرائم من جبن ومن بخل

مراده أن يصفها بوصف حاصله يرجع إلى الإخبار بزيادة مانع آخر على ما تقدم، والمعنى أن الكرام إذا تفاوضوا في ذكر محاسن هذه المحبوبة يزيد ما

---

(26) الشطر الأول من البيت لا وجود له في الديوان.

(27) ورد الشطر الثاني في الديوان: نصالها بمياه الغنج والكحل.

(28) ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره، صنعة عبد الله الجبوري المكتب الإسلامي ص31. والمنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي، ومشكل شعره، لأبي محمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي، قرأه وقدم له وعلق عليه الدكتور محمد رضوان الداية دار قتيبة دمشق 1982 ص146.

(29) البيت لابن التعاويذي، وقد أخذه من قول أبي الطيب:

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

ينظر الغيث المسجم في شرح لامية العجم، للصفدي، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، ط الثانية 1990م، م2 ص29، وديوان المتنبي شرح العكبري، ج2 ص230.

يحمد في الكرائم من وصفي الجبن والبخل طيباً لطيب حديثهم عن محاسنها. لأنها اشتملت عليهما واتصفت بهما، فإنه قال لصاحبه هذه المحبوبة يتعسر وصالها ويتعذر الاجتماع معها لما تقدم من كثرة غيرة رجال الحي وكمال شجاعتهم، وشدة شوكتهم، وينضاف إلى ذلك أنها بخيلة بالوصل، متصفة بكثرة الخوف.

تبيتُ نارُ الهوى منهنَّ في كَبِدٍ حرَّى ونارُ القِرى منهمْ على القللِ

مراده أن يبين ما عليه نساء هذا الحي الذي تقدم وصفه فيما مر من نهاية البهاء، وكمال الحسن، وما عليه رجالهن من غاية الكرم، والمعنى تبيت نار الهوى مشتعلة في كبده الحرَّى من أجل ما شاهده من حسنهن الفائق، وكمال وصفهن الرائق، وتبيت نار الضيافة مشتعلة على رؤوس الجبال لأمرهم اتباعهم بإضرامها ليقصدها من تحير في الليل من السارين، ويهتدي بها إلى منازلهم من ضل عنها من القاصدين، وهذا يتضمن وصفهم بالشجاعة أيضاً وأنهم رؤساء وملوك لا يخافون أحداً، وإنما وصفهم بذلك ليعلم السامع أن محبوبته من أشراف الناس، ومن بنات سادات العرب ليعذره في تعريض نفسه لما سلف وصفه من الأخطار.

يقتلْنَ أنضاءَ حب لا حراك بهم وينحرونَ كرامَ الخيلِ والإبلِ

مراده أن يزيد إيضاحاً لما ذكره من غاية حسن نساء هذا الحي الذي قصده، ونهاية كرم رجاله، والمعنى أن من رأى هؤلاء النساء يسقمه حبهن وينحله هواهن حتى لا تبقى به حركة، بل يصيره ما يلقاه من ذلك عديم النفع بحواسه كالميت، وأن رجاله ينحرون لمن ورد عليهم من الأضياف كريم خيلهم وإبلهم فيبالغون في إكرامهم وحفظهم، وهذا غاية ما يتصور من الكرم حيث وصفهم بأنهم ينحرون الأصيل الذي يعز عليهم من خيلهم وإبلهم، وفيه إشارة إلى أنهم سادة رؤساء، وقادة أمراء لأن رؤساء العرب في الجاهلية كانوا لا يكسبون البقر والغنم وإنما ذلك شأن أتباعهم وأحلافهم، قاله صاحب الآلي[30]

(30) هو أبو عبيد البكري، ورجعت إلى سمط اللآلي، تحقيق عبد العزيز الميمني، فلم أجد شيئاً من هذا الكلام.

ـ رحمه الله ـ لذا قال امرؤ القيس تسلية لنفسه وتسهيلاً للمصائب عندها.

إذا ما لم تكن إبل فمعز كأن قرون جلتها عصي
فتملأ بيتنا أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع وري[31]
يشفىٰ لديغُ العوالي في بيوتِهِمُ بنهلةٍ من غديرِ الخمرِ والعسلِ[32]

مراده أن المطعون بعوالي الرماح، والمصاب بمواضي البيض الصفاح، أو أن الملدوغ في أرض العوالي ـ وإنما خصها لأن حياتها لا يبرأ سليمها ـ يبرأ من ألمه بسبب رشفة واحدة من رضاب هؤلاء النساء الحسان، الشبيه بالعسل في الحلاوة وبالخمر في كونه يصير من مذاقه مثل النشوان بمعنى أن ذلك ينسيه ألم الجراح واللدغ، فيصير عند ملابستهن ومخالطتهن كمن لم يصب بشيء منها، أو ادعى أن ذلك يبريه على سبيل الادعاء كقوله:

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم يحمل إلى قابر[33]
لعل إلمامةَ بالجَزْعِ ثانية يدب منها نعيمُ البُرء في عِلَلِ[34]

مراده أن يذكر على وجه الاعتذار ما حمله على تعريض نفسه للهلاك في قصد هذا الحي الموصوف بما تقدم، والمعنى إنما أمرتك بالسير في ذمام الليل، وإنما أهمت ناشئة بالجزع، لأني أترجى أن يحصل لي بسبب الإلمام به مرة أخرى برء يدب في عللي دبيب النسيم، ويوردني من ساحة المحبوب حوضاً من

---

(31) في رواية الديوان:

ألا إن لا تكن إبل فمعزى كأن قرون جلتها العصى
فتوسع أهلها أقطاً وسمناً وحسبك من غنى شبع وري

وعلق الأصمعي قائلاً: امرؤ القيس ملك، ولا أراه يقول هذا، فكأن الأصمعي أنكرها. ينظر ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط الرابعة، دار المعارف، ص136 وما يليها.

(32) وردت (العوالي) في الديوان (الغواني)، و(غدير)، (لذيذ).

(33) شرح ديوان الأعشى، دار الكاتب العربي، بيروت ـ لبنان، 1968 ص95، وقد وردت (بجمل) في الديوان (ينقل).

(34) جاء الشطر الثاني في الديوان: يدب فيها نسيم البرء في علل.

رحيق ختامه مسك ومزاجه من تسنيم[35]، لعل ذلك ينفعني في إذهاب عللي وإزاحة ما أجده من حرقة غللي، ولا أظن ذلك نافعاً ولا فيه لما أجد قامعاً.

لا أكرَهُ الطعنةَ النجلاء قد شُفعت برَشْقَةٍ من نِبالِ الأعين النُجُلِ

مراده أن يبين أنه إذا انتهى من مكان القرب من محبوبه إلى حيث يلحظه بعينيه، ويتلذذ بسماع كلامه بأذنيه، وينال منه لحظاته الشبيهة بالسهام المرماة عن قوس حاجبه وأعينه النيام، لا يكره عند ذلك الطعنة النجلاء، لاقترانها بمراده، ولأن ألمها عنده أهون مما يجده من نار الهوى في فؤاده، فإن الألم إذا قارنه ما يدفعه من اللذة لا يبالي به.

ولا أهَابُ الصفاحُ البيضَ تسعدني باللّمْحِ من خَلَلِ الأستارِ والكَلَلِ[36]

مراده أن يشجع صاحبه ويغريه على الإعانة، ويعلمه بأنه لا يبالي إذا ظفر بأدنى وصال من محبوبته بأشد ما يحذر ويتقي، والمعنى أنه لا يخاف أن يصاب بالسيوف العريضة البيض المساعدة له بلمحة تلك النسوة الحسان من فرج الأستار، ويتوصل إلى أدنى نظرة منهن من الكلل، ولو كان ذلك مما يقود به إلى التلف والدمار.

ولا أخل بغزلان أغازلها ولو دهتني أسودُ الغيل بالغيل

مراده أن لا يترك التلذذ بمحادثة هاتيك النسوة اللائي في الحسن كالغزلان، ولا يدع ملابستهن والتمتع بالنظر إلى وجوههن الحسان، ولو تيقن أنه سيغتال بسيوف شجعانها وحماتها، ويصاب بأنواع الدواهي من قبل كماتها، والمعنى أنه لا يدعهن على كل حال، ولا يبالي بما يلقىٰ دونهن من تعب أو موت أو قتال.

حب السلامة يثني عزم[37] صاحبه عن المعالي ويغري المرءَ بالكَسَلِ

---

(35) أخذ المعنى من قوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: 25 ـ 27].

(36) في الديوان: صفاح البيض، وورد الشطر الثاني:

..... باللمح من صفحات البيض في الكلل

(37) في الديوان وردت (هم).

مراده أن يغري صاحبه على الموافقة والتشمير على ساعد الاجتهاد فيما يطلبه، إن جعلنا الخطاب لغيره، وأما إن جعلناه لنفسه فهو تقريع لها وتوبيخ على التأني وعدم سرعة الإقدام على المطلوب، والمعنى أن حب الرجل للسلامة من المكاره وتوقيه للمعاطب مما يرد عزمه عن الوصول إلى أنواع المعالي والمكاسب، لأنها لا تنال إلا بركوب متن الخطر، ويغريه عن الكسل الذي لا يفوز معه إلا بالذل والفقر، فانبذه وراء ظهرك، ولا تجعله قدوة في شيء من أمرك.

فإن جنحتَ إليه فاتخذْ نفقاً في الأرض أو سُلَّماً في الجَوَّ فاعتزلِ

مراده أن يقول لصاحبه أو لنفسه إن جنحت إلى حب السلامة من الناس، وآثرت الميل إلى اجتناب ما يُتَّقَىٰ من جانبهم من أنواع البأس، فاتخذ سرباً في باطن الأرض، لتسلم من مخالطتهم أو سلماً تصعد به الجو لتبعد من مجالستهم ومداخلتهم، ولا سبيل لك إلى واحد منهما، إذ لا بد للإنسان من المعاملة لعدم استقلاله بأموره لا محالة، وهذا البيت احتاج لما قبله، لأن المخاطب يضطر آخر الأمر إلى أن يعترف أنه مفتقر إلى المخالطة غير قادر على الاعتزال، فيلزمه أنه لا يسلم من الناس وهو المطلوب.

ودعْ غمارَ العلا للمقدِمين على ركوبها واقتنعْ منهنَّ بالبَلَلِ

مراده أن يقول لنفسه أو لصاحبه إن ملت إلى حب السلامة، فاعتزل الناس واترك ما انغمس فيه غيرك من لجج النعم والمعالي، للذين يركبون في طلبها الشدائد، فلا يبالون باقتحام السيوف والعوالي، واقنع بدل ذلك بما تصيبه من أيديهم على وجه الصدقة، لأنك لست ممن يصبر على الشدائد، ويحبس نفسه على المكاره، ليتصل من المعالي بمراده، ويصل إلى أعلى الرتب بشدة اجتهاده.

دببت للمجد والساعون قد بلغوا حد النفوس وألقوا دونه الأزرا
وكابدوا المجد حتى ملَّ أكثرهم وعانق المجدَ من أوفى ومن صبرا[38]

---

(38) وقال رجل من بني أسد:

دببت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
فكابروا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا =

رضى الذليل بخفض العيش مسكنة[39] والعز عند رسيم الأينق الذلل

مراده أن يبين أن القناعة بالقليل من المعاش الذي كنى عنه بالبلل في البيت الذي قبله، وبين أن ذلك ثمرة حب السلامة، ونتيجة الركون إلى العجز والكسل، لا يرضى بذلك إلا الذليل المسكين العاجز عن التمسك بنيل الأسباب، وأما أهل الهمم العالمية والنفوس الأبية فلا يرضون إلا بأطيب العيش مما يجنونه بأيديهم من ثمار الاكتساب، وكيف يرضون بالمعيشة في ظلال الذل والعجز موجود عند ركوب النوق المذللة، والخير كله معقود بنواصي الخيل المسومة[40]، وهذا كله تحريك لحمية صاحبه أو لنفسه، وحث على النقلة والاشتغال بالأسباب، ورفض العجز والجبن، فما لعق العسل من كسل وسَبلٍ.

فادرأ بها في نحورِ البيدِ جافلةً معارضاتِ مثاني اللجم بالجدل

مراده أن يبين كيفية التوصل إلى العز الذي ذكر أنه عند رسيم الأينق

= ينظر ديوان الحماسة، لأبي تمام، شرح التبريزي، دار القلم بيروت ج2 ص225.

وقد ورد البيتان في آمالي القالي:

دببت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا

وكابدوا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا

ينظر الآمالي، لأبي علي القالي، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج1 ص113.

وفي بهجة المجالس، اختلفت رواية البيتين، حيث جاءت روايتهما:

دنوت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وشدوا دونه الأزرا

وساوروا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من وفى ومن صبرا

ينظر بهجة المجالس وأنس المجالس، وشحذ الذاهن والهاجس، لابن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، م1 ص318.

(39) في الديوان: يخفضه.

(40) ورد الحديث في باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة حدثنا عبد الله بن مسلمة: حدثنا مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**».

حدثنا حفص بن عمر: حدثنا شعبة عن حصين وابن أبي السفر عن الشعبي عن عروة بن الجعد عن النبي ﷺ قال: «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة**». صحيح البخاري، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق الشيخ محمد علي القطب ط المكتبة العصرية، صيدا بيروت ١٩٩٤، ج٢.

الذلل، والمعنى إن أردت أن تنال العز فادفع بالنوق المذللة في نحو المفاوز، وبطون القفار، وبادر بأزمتها أعنة الخيل مسرعة في طلب العلا بين القرى والأمصار، وبادر بأزمة هذه لجم تلك لعلك تبلغ المراد، ويشار إليك بالتفرد به بين العباد، وهذا نظير قول أبي الطيب المتنبي يصف سيره من مصر:

تبري لهن نعام الدوّ مسرجة تعارض الجدل المرخاة باللحم[41]

إن العلا حدّثتني وهي صادقة فيما تحدّثُ أنَّ العِزَّ في النَّقَلِ

مراده أن يبين علة الدرء بالنوق في نحور المفاوز على ما تقدم، والمعنى إنما فعلت ذلك، لأن العلا حدثتني فيما رويت عنها من الأخبار وأنبأتني فيما تحملت عنها من الأحاديث والآثار أن العز مقرون بالانتقال من مكان إلى مكان، وأن تحصيل المراد أكثر ما يتأتى مع التقلب والاجتهاد في كل زمان، وهي صادقة في ذلك غير متهمة عندي، ولهذا ألزمت نفسي العمل بمقتضى ما تقرر منه في خلدي.

وإذا الزمان كساك حلة معدم فالبس له حلل النوى وتغرب[42]

لو أن في شرف المأوى بلوغَ مُنىً لم تبرح الشمسُ يوماً دارةَ الحَمَلِ

مراده أن يقيم الدليل على صحة ما حدثته به العلا من وجود العز في النقل، والمعنى لو كان المقام بالمكان الشريف والمثوى بالمنزل المنيف يبلغ المرء إلى مناه، ويوصله إلى أقصى ما يتمناه، ما برحت الشمس مقيمة ببرج الحمل، وما تعدته إلى غيره، لأنه أشرف منازلها لكونه منزل استوائها واعتدالها، لكن اللازم باطل والملزوم مثله.

قالوا نراك كثير السير مجتهداً في الأرض تنزِلُها طوراً وترتحلُ

فقلت لو لم يكن في السير فائدة ما كانت الشمس في الأبراج تنتقلُ[43]

---

(41) ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، دار المعرفة بيروت، ج4 ص156، وتبري: تعارض، الدو: الفلاة المستوية، الجدل: جمع جديل، وهي الأزمة.

(42) ديوان البحتري، شرحه وعلق عليه الدكتور محمد التونجي، دار الكتاب العربي، ط الثانية 1999م، ج1، ص175.

(43) البيتان لأبي الشكر حماد بن هبة الله بن حماد بحران، وقد جاءت رواية البيت الثاني في الغيث المسجم: =

أهبت بالحظ لو ناديتُ مستمعاً والحظ عنّي بالجُهَّالِ في شُغُلِ

مراده أن يبين أنه لم يأل جهداً في تحصيل نصيبه من الدنيا، وأنه بلغ المجهود في روم الأخذ بزمام العلياء، والمعنى أني دعوت الحظ إلي، وحاولته غاية المحاولة على أن يعرج علي فلم يلتفت نحوي ولا صرف عنايته إلى قصدي، ولو ناديت مستمعاً لأجابني، لكن ناديت من لا يستمع إلي لكونه مولعاً بكل جاهل، فهو غني بسبب الإقبال عليه في شغل شاغل.

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي[44]

وقال أبو الطيب:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع المجد والفهما[45]

والحق مع من قال:

علمي بسابقة المقدور ألزمني صمتي وصبري فلم أحرص ولم أسل
لو نيل بالقول مطلوب لما حرم الر ؤيا الكليم وكان الحظ للجيل[46]
لعله إن بدا فضلي ونقصُهمُ لعينِهِ نام عنهم أو تنبَّهَ لي

= فقلت لو لم يكن في السير فائدة ما كانت السبع في الأبراج تنتقل

ينظر الغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدي، ص118.

(44) هذا البيت ينسب إلى عمرو بن معد يكرب، وينسب إلى عبد الرحمن بن الحكم، وذكر جمال الدين بن نباتة المصري في كتاب سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون أن البيت لعمرو بن معد يكرب وذكر معه بيتاً آخر، وهو:

ولو ناراً نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

ثم عاد فذكر أن البيت يروى لدريد بن الصمة، وذكر معه بيتاً آخر فهما:

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو ناراً نفحت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

وذكر الصفدي في شرح لامية العجم البيت الأول، ونسبه إلى عبد الرحمن بن الحكم، ويروى هذا البيت لكثير عزة.

(45) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، لأبي البقاء العكبري، ج4، ص108، والجد: الحظ والبخت. والفهم: معرفة العلوم.

(46) البيتان لأبي الفوارس سعد بن محمد بن الصفي، ينظر الغيث المسجم م2 ص121.

مراده أن يعتذر عن دعائه الحظ مع أنه لا يلتفت إليه، والمعنى إنما ناديته وحاولت إقباله، لأني أترجى أن يتأمل فيظهر له فضلي إذا قابلته مع نقص من أولع به من الجهال، فينام عنهم ويتنبه لي أولى منهم بأن يقبل علي وقد قيل:

لا تيأسنَّ إذا ما كنت ذا أدب على خمولك أن ترقى إلى الفلك
فبينما الذهبُ الأبريز مطَّرَحاً في معدن إذ غدا تاجاً على ملك[47]
أعلِّلُ النفسَ بالآمالِ أرقبُها ما أضيقَ العيشَ لولا فُسْحَةُ الأملِ

مراده أن يذكر عذراً آخر عند ندائه الحظ والمعنى لا أمل من أن يكون اشتغالي به، وإن كنت لا أحصل منه على شيء علالة للنفس ومواعدة لها بإدراك الأمل، ومراقبتها لأن تصل إلى أعالي الرتب قبل هجوم الأجل، فيتسع لذلك ما ضاق عليها، ويصفو بعض الصفو ما كدره الدهر من عيشها، فما أضيق العمر لولا أنه يوسع على نفسه بالأمل، ولا شك أن الآمال توسع على الإنسان ما ضاق عليه، وتدنى الآماني البعيدة عليه، وفي الحديث: «**لولا الآمال لانقطعت الأعمال**»[48].

وما هذه الأيام إلا صحائف يؤرخ فيها ثم تمحا وتمحق
ولم أر شيئاً مثل دائرة المنى توسعها الآمال والعمر ضيق[49]
لمْ أرتضِ العيشَ والأيامُ مقبلةٌ فكيفَ أرضى وقد ولَّتْ على عَجَلِ

مراده أن يبين أنه ما كان راضياً بالعيش المذكور فلا زمن توشح فيه برداء الشباب، واتزر بميزار الصبا لما كانت الأيام مقبلة عليه وأغصانه غضة طرية تستهوي ناظرها وتفتنه بنظارة ثمارها وأزاهرها، فكيف يتتبعه ويرضى به وقد كبر سنة وولت أيامه عنه، وأخذت بأنواع حوادثها منه.

---

(47) ديوان الطغرائي، تحقيق الدكتور علي جواد الطاهر، والدكتور يحيى الجبوري، ط الثانية، دار القلم ـ الكويت، ص266.

(48) لم أقف عليه بهذا اللفظ، غير أنه جاء بلفظ آخر، من قول: ماجدة الفرشية، بلفظ (طووا الآمال خفت عليهم الأعمال). وهو في كتاب صفوة الصفوة، لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ج4 ص74.

(49) البيتان للعماد الكاتب، الغيث المسجم م2 ص163.

وقد كنت في عصر الشباب مجانباً هواي فكيف الآن والشيب وازع[50]

غالى بنفسيَ عِرْفاني بقيمَتِها فصنتُها عن رخيص القَدْرِ مبتَذَلِ

مراده أن عرفانه بقيمة نفسه غالى فيها من ساومها، وأنه لا يقنع ببخس الثمن فيها ممن بذاك رامها، فلذلك صانها من البيع برخيص من القدر، وأنف أن يكون ممن استعبد لأجل غرض الدنيا بتافه من النزر، أو فصنتها عن أن أبيعها من وضيع القدر المبتذل لها، لأنه لا يعرف قيمتها، والنفوس الأبية المهذبة بالمعارف والحكم الإلهية، لا قيمة لها ولو أعطيَ مشتريها الدنيا وما عليها.

قيمة الإنسان ما يحسنه أكثر الإنسان منه أو أقلِ[51]

وعادةُ النَّصْلِ أن يَزْهى بجوهَرِه وليسَ يعمَلُ إلا في يَدَيْ بَطَلِ

مراده أن يبين معنى المغالاة بنفسه أي أن العادة جرت بأن يتزين بالسيف، ويزهى بجوهره، ويصان في أغشيته وحمائله وإن لم يكن المراد منه نفس نصله ولا التزين بحمله، بل المراد منه أن يقطع أوصال الكلى والمفاصل، ويفرى الأوداج، وينفذ إلى المقاتل، لكن لا يعمل هذا العمل وحده لاستحالته، ولا في يد الجبان لفقدان شرط، إذ لا بد في عمله من أن يكون عدة لشجاع لا ينبو في يده، وإلا كان ضائعاً.

من مدح ضائعاً في لومه كضياع السيف في كف الجبان[52]

كذا قال الماغوسي وأحسن قوله أن تقول إنه في مقام الافتخار بفضله، وأصالة رأيه ونبله، فشبه نفسه بالسيف الصارم الذي يعجب بذاته لما عنده من العلم بسياسة الأمور، وتدبير الخاصة والجمهور، لكن أين من يحمل هذا السيف، لأن السيف لا يعمل إلا في يد الشجاع، وهذا المعنى أنسب بما ذكره

---

(50) لم أعثر له على قائل.

(51) البيت لعمر بن الوردي، ينظر الجواهر المختارة من تراث العرب جمع وتقديم محمد صالح البنداق، دار الآفاق الجديدة بيروت ص54، غير أن (أو) في الشطر الثاني وردت في الجواهر (أم).

(52) ينظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني، تحقيق الأستاذ يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر 1986م، م3 ص129.

من أن البيت كالذي قبله تعريض بسلطان زمانه، حيث أبعده من رتبة الوزارة التي كان فيها.

ما كنت أوثر أن يمتدَّ بي زمني حتى أرى دولةَ الأوغادِ والسَّفَلِ

مراده إظهار التحسر والتحزن مما عامله به زمانه، وألزمه الإقامة عليه من الخسف أوانه، أي ما كنت أختار أن يمتد عمري مع الأيام إلى أن تنقضي دولة الكرام، ويتولى تدبير الأمور السفلة اللئام والأوغاد الطغام، حتى انعكست القضايا وصار أهل الفضل يتمنون المنايا، فهو تصريح بذم أرباب دولة زمانه بعد التعريض بسلطانه.

إذا وصف الطائي بالبخل مادر وعير قسا بالفهاهة باقل
وقال السهى للشمس: أنت خفية وقال الدجى: للصبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فيا موت زر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدي إن دهرك هازل[53]
تقدمتني أناسٌ كان شوطُهُمْ وراء خطوي ولو أمشي على مَهَلِ[54]

مراده أن يبين سوء معاملة الزمان له وإخناءه عليه، وإدارة سنان إهانته إليه، أي أن الزمان عاقه عن السعي وحال بينه وبين الجري حتى صار أمامه أناس كانوا لا يلحقون أثره ولا يبلغون ـ ولو سعوا جهدهم ـ مستقره، لو مشى لهم متمهلاً فكيف يؤملون لحاقه إذا كان مستعجلاً.

إن المقاديرَ إذا ساعدت ألحقت العاجزَ بالحازم[55]
هذا جزاءُ امرئٍ أقرانُهُ دَرَجُوا من قَبْلِهِ فتمنّى فُسْحَةَ الأجَلِ

---

(53) سقط الزند، دار صادر بيروت 1992، ص194 وما يليها وقد وردت لفظة (للصبح) في السقط (يا صبح). الطائي: حاتم الطائي، مادر: رجل من بني هلال عرف ببخلِهِ، قس: هو ابن ساعدة أسقف نجران، باقل: رجل من ربيعة ضرب به المثل في العجز عن الكلام، والفهاهة: العي عن الكلام والسهى: كوكب خفي، طاولت: باهت، سفاهة: جهلا، الجنادل: الحجارة، جدي: أخذي بالجد لا بالهزل.

(54) وردت (لو) في الشطر الثاني (إذ) في ديوان الطغرائي.

(55) البيت لعمر بن الوردي.

مراده أن ما هو فيه من الغربة والإهانة، وعطل جيده من عقد الولاية، وارتدائه ثياب الإفلاس وعقوق الزمان له حتى تقدمته سفلة الناس، هو جزاء رجل ماتت نظراؤه وأصحابه، ودرج قبله أحباؤه وأترابه، فتمنى طول الحياة من بعدهم، وتفيأ ظلال العيش مع فقدهم.

وإن عـلانـيَ مَـنْ دونـي فـلا عـجـبٌ لي أسوةٌ بانحطاطِ الشمس عَنْ زُحَلِ

مراده أن يسلي نفسه بهذا الكلام ويسهل المصاب عندها والآلامَ، أي وإن علاني السفلة والأوغاد الذين ذممت دولتهم، وقدحت في ولايتهم، وهم دوني في الرتبة فلا عجب من هذا الأمر، ولا غرابة في وقوع مثله من الدهر، فلي أسوة بانحطاط الشمس عن منزلة زحل مع أنها على كل اعتبار أشرف منه وأجل.

ولـولا كـثـرة الـبـاكـيـن قـبـلـي عـلـى قـتـلاهـمُ لـقـتـلـت نـفـسـي[56]

فاصبرْ لها غيرَ محتالٍ ولا ضَجِرٍ في حادثِ الدهرِ ما يغني عن الحِيَلِ

مراده أن يسلي نفسه ويحملها على الصبر، أي فاصبر صبراً جميلاً عند نزول حوادث الدهر ومصائبه، ولا يقلقنك حلول معضلاته ونوائبه، صبر من لا يحتال في دفعها ولا يتضجر عند ترادف غمراتها، فإن فيما يحدثه الله في الدهر من العجائب ما يسليه عن المصائب ويغنيك عن حيلك، إذ ربما أتاك بما لا تعلم بعد حسبك بما يرضي لك في طولك، وكان الحجاج كثيراً[57] ما ينشد إذا تراكمت عليه الأمور.

دعـهـا سـمـاويـة تـجـري عـلـى قـدر لا تـفـسـدنْـهـا بـرأي مـنـك مـنـكـوسِ[58]

وقال الآخر:

---

(56) البيت للخنساء، غير أنه ورد في ديوانها، شرح ثعلب أبي العباس أحمد بن يحيى، تحقيق د. أنور أبو سويليم، دار عمار، الأردن، ص326.

فـلـولا كـثـرة الـبـاكـيـن حـولـي عـلـى إخـوانـهـم لـقـتـلـت نـفـسـي

ووردت لفظة (قتلاهم) في المخطوط (مثلاهم)، والصواب ما أثبتناه.

(57) وردت في المخطوط (مثيراً) وهو تحريف.

(58) ينظر صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، ط دار الفكر 87، ج14 ص318.

الـدهـر بـحـر لـه عـجـائـب وهـي خـطـوب لـمـن نـظـر[59]

وقال ابن الوردي:

فـاتـرك الـحـيـلـة فـيـهـا واتـئـد إنـمـا الـحـيـلـة فـي تـرك الـحـيـل[60]

أعـدى عـدوِّكَ أدنـى مـن وَثِـقْـتَ بِـهِ فـحاذِرِ الـناسَ واصحبَهُمْ على دَخَلِ

مراده أن يبين أن الأمان قليل في أبناء الزمان، وأن الصاحب الوفي معدوم ومنتفي، والمعنى أن أشد الناس عداوة إليك وأكثرهم ضرراً عليك أقرب من اعتمدته، وعولت عليه في أمرك ممن تأمنه من أودائك على سرك، فخذ وصيتي وجانب معصيتي، وحاذر جميع الناس ولا تأمنهم ولا تصحبهم إلا على دخل وخدع منك لا تصادقهم.

وظُـنَّ بـسـائـر الإخـوان شـراً ولا تـأمـنْ عـلـى سـر فـؤادا

فـلـو خِـبـرتْـهُـمُ الـجـوزاءُ خَـبْـري لـمـا طـلـعـت مـخـافـة أن تـصـادا[61]

وكـن عـلـى حـذر لـلـنـاس تـسـتـره ولا يـغـرك مـنـهـم ثـغـر مـبـتـسـم

غـاض الـوفـاء فـمـا تـلـقـاه فـي عـدة وأعوز الصدق في الإخبار والقسم[62]

جزى الله بالخيرات من ليس بيننا ولا بـيـنـنـه ود ولا مـتـعـرف

فـمـا نـالـنـي ضـيـم ولا مـسـنـي أذى من الناس إلا من فتى كنت أعرف[63]

قيل لمعاوية ما بلغ من عقلك قال: (ما وثقت من الناس قط)[64]، وهذا

---

(59) لأبي مدين التلمساني من قصيدة له مطلعها:

أنـت بـمـا قـد سـقـيـت شـارب مـن رحـيـق كـان أو كـدر

(60) الجواهر المختارة، ص54، وفيها وردت (واتكل) بدلاً من (واتئد).

(61) سقط الزند، لأبي العلاء المعري، ص197، ورويت و(ظن) في السقط (فظن)، و(أن تصادا)، (أن تكادا).

(62) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري البغدادي ضبط نصوصه وأعد فهارسه، وقدم له الدكتور عمر فاروق الطباع دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت ـ لبنان 1997 ج2 ص507.

(63) لم أعثر على قائله.

(64) لم أقف على المصدر.

كله فيما يرجع إلى السياسة كي تتنظم الدنيا لأهل الرياسة، وإلا ورد النهي عن سوء الظن بعباد الله في الأحاديث الصحاح[65].

فإنما[66] رَجُلُ الدنيا وواحدُها من لا يعوّلُ في الدنيا على رَجُلِ

مراده أن لا يستحق أن يوصف بأنه رجل الدنيا وواحدها، ويوسم بأنه خليق أن تلقى إليه في الرياسة والسياسة مقالدها إلا رجل ظن السوء بجميع الناس، بحيث لا يعول على أحد منهم في دنياه، وحاذرهم فلم يثق بصديق حميم فيما يتعاطاه.

وحُسْنُ ظنِّكَ بالأيامِ معجزةٌ فَظُنَّ شراً وكُنْ منها على وَجَلِ

مراده زيادة التوضيح للبيت قبل، والمعنى أن حسن ظنك بالأيام وأهلها خيراً، وركونك إليهم بحيث لا تتوقع منهم خيراً عجز منك عن اختيار أحوال الناس والأيام، وعدم سلوكك لطرق الحزم المحمودة فيما بين الأنام، لأن من صحب غيره مدة عمره، ولم يختبر أحواله ولا استكشف أمره، وسير أقواله وأفعاله قد ركن إلى العجز.

ولم يأخذ بما ينبغي أن يأخذ به من الحزم، وإذا علمت هذا فظن بالجميع شراً، وكن منهم على حذر وخوف، واتق أن يوردوك موارد الردى من غير مهل ولا تسوق.

تجنبت الأنام فلا أواخي وزدت عن العدو فما أُعادى
ولما أن تجهمني مرادي جريت مع الزمان كما أرادا[67]

---

(65) ما أخرجه البخاري في صحيحه، ج4 ص165، في كتاب الأدب باب: ما ينهي عن التحاسد والتدابر، برقم (6066)، والإمام مسلم في صحيحه، ج4 ص1985، في كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الظن والتجسس، برقم (28)، وأبو داود في سننه في كتاب: الأدب. والترمذي في سننه في كتاب البر والصلة، والإمام مالك في الموطأ، ج2، ص711، برقم (10)، كلهم من طرق عن مالك عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: **«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»**.

(66) في الديوان: وإنما.

(67) سقط الزند، دار صادر، بيروت، ص198.

فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة والبيض والسود مثل البيض والسمر[68]

وما قارنت شخصاً من الناس ساعة من الدهر إلا وهي أفتك من قرن[69]

غاض الوفاءُ وفاضَ الغدرُ وانفرجتْ مسافةُ الخُلْفِ بين القولِ والعملِ

مراده أن يبين علة الأمر بسوء الظن في البيت قبل، والمعنى أن الوفاء قد ذهب من الناس كالماء يغيض وينضب ويذهب في الأرض، وفشا بينهم الغدر، وركبوا بسبب فساد طباعهم مطايا المكر، واتسعت مسافة الخلف بين أقوالهم وأفعالهم حتى تعذر قطعها عليهم، وإن كانت رهاناً لاستباقهم، قال الفقيه أبو بكر بن عطية:

كن بذئب صائد مستأنساً وإذا أبصرت إنساناً ففر

إنما الإنسان بحر مالَهُ ساحل فاحذره إياك الغرر

واجعل الناس كشخص واحد ثم كن من ذلك الشخص حذر[70]

وقد صرح بأن مسافة ما بين القول والعمل في زمانه متسعة، فلربما تعذر قطعها على الناس، لكونها طويلة منفسحة، وأما زماننا هذا فالقول والعمل فيه نقيضان، بل هما بحسب الحقيقة نقيضا النقيضين لأنهما لا يجمعان، بل يرتفعان.

وشان صدقَكَ عند الناس كِذْبُهُمُ[71] وهل يطابَقُ معوجٌ بمعتَدِلِ

مراده أن ما عليه أبناء الزمان من الكذب شان صدق الصادق وحيره شيناً وعيباً، لأنهم يحملون أقواله الصادقة على ما ألفوه من كذبهم، فكان معهم في

(68) ديوان ابن عبدون الأندلسي، تحقيق سليم التنير، دار الكتاب العربي، دمشق 1988، ص139.

(69) سقط الزند، ص14، وقد وردت لفظة (الناس) في السقط (الخلق).

(70) هو الفقيه أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام بن عبد الله بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية، ولد سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وأبو بكر هذا هو والد الفقيه الحافظ القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية. ينظر الترجمة والأشعار فهرس ابن عطية للإمام القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية المحاربي الأندلسي، تحقيق محمد أبي الأجفان، ومحمد الزاهي، ط الثانية دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص10، 59 وما يليها.

(71) في المخطوط (كذبكم) والصواب (كذبهم)، وكذا وردت في الديوان.

طرفي نقيض، لتلبسه من الصدق بما لا يتلبسوا به، وتمسكه من الوفاء بما يتمسكوا بسببه، ولهذا لم تقع بينه وبينهم ملاءمة، ولا حصلت بهم مؤانسة، ولا موافقة، ولما كان علم النفس بالمحسوسات أتم لجريان العادة بإلفها إياها أورد مثلاً منها مطابقاً لحالته مع حالة الناس، فقال: وهل يطابق المعوج يعني كذبهم مع المعتدل، يعني صدقه، يريد أن ذلك مما لا يكون أبداً لأن النقيضين لا يجتمعان أصلاً، فهل بمعنى النفي على حد قول امرئ القيس:

وإنَّ شفائي عبرة لو سفحتها وهل عند رسم دارس من معول[72]

وعجز البيت يشبه قول أبي الطيب يمدح سيف الدولة:

رأيتك في الدين أرى ملوكاً كأنك مستقيم في محال[73]

وصدره يشبه قوله يمدح كافوراً:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وعادىٰ محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم[74]

إن كان ينجعُ شيء في ثباتِهُمُ على العهودِ فسبقُ السيفِ للعَذَلِ[75]

مراده أن يبين أنه أيس من وفاء الناس ومن خيرهم، والمعنى إن كنت تظن أنه سينفع شيء من اللوم والتعنيف في ثبات الناس على ما يعطونه من العهود، أو يجري بعض ذلك في وقوفهم عندما يتعاطونه من الإيمان على الوفاء بالوعد، فإن غدرهم قد سبق قبل اليوم، فعلام هذا التعنيف واللوم، أي لا تطمع بسبب لومك وتعنيفك إياهم في أن يثبتوا على عهدك، وأن يوفوا بوعدك غدرهم ونقضهم، فلا يفيد اللوم عليه، ويجوز أن يكون المعنى إن كنت تظن أنه

---

(72) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ط4 1984م، ص9.

(73) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت ج3 ص20.

(74) المصدر نفسه، ج4 ص135.

(75) فسبق السيف العذل، مثل يضرب للفعل الذي لا سبيل إلى رده قاله ضبة بن أد بن طابخة، لما لامه الناس على قتله قاتل ابنه في الحرم. ينظر مجمع الأمثال للميداني، دار مكتبة الحياة، بيروت ط الثانية، ط275، و461.

سينفعك شيء في ثباتهم على العهود، فالسيف هو النافع، أو فسبق السيف قبل عذلهم هو النافع أو فالنافع سبق السيف لعذلهم، وعلى كل حال فالمقصود أن العذل لا يفيد فيهم شيئاً، فالأولى تركه والعذول إلى مبادرتهم بالسيوف، وفي النظام تلميح للمثل، وهو قولهم سبق السيف العذل، قال في حاشية الآمالي[76]: أصله لضبة بن أد، وكان له ابنان سعد وسعيد فندت منه إبل فخرجا في طلبها، فأبطئا فاستشوق إليهما، فكلما رأى شخصاً قال: أسعد أم سعيد، ثم رجع سعد ولم يرجع سعيد، فخرج ضبة في طلبه فبينما هو يسير إذ لقيه رجل يسمى الحرث بن كعب فتحدث ساعة ثم قال له: قتلت في هذا المكان شاباً من صفته كذا، وهذا سيفه، فقال: ناولنيه فناوله إياه، فقال ضبة: الحديث شجون وإرسلها مثلاً، فضربه بالسيف حتى قتله فلامه قومه على قتله في الشهر الحرام، فقال: سبق السيف العذل، فأرسلها مثلاً، قال جرير:

تطلبني رد العواقب بعدما سبقن كسبق السيف ما قال عاذله[77]

يا وارداً سؤرَ عيش كلَّه كَدَرٌ أنفقتَ صفْوَكَ في أيامكَ الأُوَل[78]

فيم اقتحامُكَ لج البحر تركَبُهُ وأنت يكفيكَ منه مَصَّةُ الوَشَلِ[79]

مراده أن يكسر من سورة نفسه، ويؤنسها بهذا الكلام بعدما آثار عزمها وحرك من نشاطها بما تقدم من الخطاب، والمعنى يا من ورد فضلة عيش كلها كدرة، والحالة أنك أذهبت صفو عيشك في أيامك الداثرة ولذاته زمن الشبيبة، وأغصان آمالك غضة ناضرة، لأي شيء تركب أمواج البحار، وتصبر على أهوالها، وتعرض نفسك لأنواع مهالكها وآفاتها، وأنت ممن يكتفي بمصة واحدة

---

(76) كتاب التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، دار الآفاق الجديدة، بيروت ص43.

(77) ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، ص388. وجاءت رواية الشطر الأول في الديوان: وما بك رد للأوابد بعدما

(78) ورد البيت في الديوان، ص308.

يا وارداً سؤر عيش كله كدر أنفقت عمرك في أيامك الأول

وفي المخطوط ورد الشطر الأول: يا وارد عيش كله كدر والصواب رواية الديوان.

(79) روى البيت في الديوان، ص308.

فيم اعتراضك لج البحر تركبه وأنت تكفيك منه مصة الوشك

تسد عطشه بدل ركوب هذا الهول العظيم، ويجتزي بأقل القليل من ذلك، وهو موجود في أي وشل كان، دون التعرض لهذا الخطب الجسيم، وأخبره بالمصدر مبالغة وتنبيهاً على أن هذه البقية كدر محض لا يشوبها شيء من الصفو كقول الخنساء:

فإنما هي إقبال وإدبار[80].

وذلك من المجاز العقلي عند الزمخشري وجماعة، وتشبيه فضلة العيش في النفس بالماء مكنية، وإثبات السؤر تخييلية، والورود والكدر ترشيح، ويجوز أن يكون سؤر عيش من التشبيه المؤكد كذهب الأصيل[81].

ملكُ القناعة لا يُخشى عليه ولا يُحتاجُ فيه إلى الأنصار والخَوَلِ

مراده أن ملك القناعة ملك جليل، ومعتصم لمن تمسك جذيله جزيل لأن صاحبه غني عما في أيدي الناس، لا يتوقع منهم من أجله من بأس، ولا يخشى مزاحمتهم على ملكه، ولا يفتقر في استبقائه إلى جنود تقيه هلكه، ولا يتوقف على أنصار ولا خول، ولا يحتاج في التصرف فيه إلى تدبير ولا حيل، في الحديث: «**ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، واجتنب ما حرم الله عليك تكن أورع الناس**»[82].

---

(80) ديوان الخنساء، شرح ثعلب أبي العباس، تحقيق الدكتور أنور أبو سويلم، دار عمار 1988، ص383.

(81) هذا من قول الشاعر ابن خفاجة، الديوان، دار صادر بيروت 1961، ص11.

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وقد ورد شاهداً بلاغياً في باب تقسيم التشبيه باعتبار أداته، ينظر كتاب الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ط1950، ج4 ص176.

(82) ورد هذا الحديث في باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس، عن الحسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ألا من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن، أو يعلم من يعمل بهن، فقال أبو هريرة: قلت أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعد خمساً وقال «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب» قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان، والحسن لم يسمع من أبي هريرة شيئاً. ينظر سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق صدقي محمد جميل العطار، وعبد القادر عرفان العسا حسونة، دار الفكر بيروت 1414هـ/ 1994م، 4/ 136 وما يليها.

وقال بعض الحكماء: الدنيا تطلب لثلاثة أشياء: الغنى والعز والراحة فمن قنع استغنى، ومن زهد فيها عز، ومن قل سعيه إليها استراح[83].

وقال بعضهم: الدنيا علة، من نالها مات منها، ومن لم ينلها مات عليها، والسعيد من اقتصر منها على قدر الكفاية، لأن ما زاد عليها ربما كان سبباً للهلاك ديناً ودنيا[84].

قال الشاعر:

وإني رأيت الدهر منذ صحبته معايشة مقرونة بمصائبه

إذا سرني في أول الأمر لم أزل على حذر من غمه في عواقبه[85]

وقال سيدنا علي رضي الله عنه:

ومن يصحب الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع[86]

ولزوم القناعة والرضى باليسير كما في النظم مذهب كثير من العلماء، ورأس مال لجماعة من الأكابر الرؤساء، يشهد بذلك تتبع آثارهم، وينبي عنه تصفح أخبارهم، حكى عن الخليل بن أحمد أنه كان مجتنباً للأمراء ملازماً لبث العلم، فبعث إليه المهدي العباسي فامتنع من القدوم عليه فراجعه مراراً، وجده الرسول في آخرها يأكل خبزاً يابساً بماء بارد فقال له قل لأمير المؤمنين: ما دمت أجد هذين لا حاجة بي إليه[87].

ترجو الخلودَ بدارٍ لا بقاءَ بها فهل سمعتَ بظلٍ غيرِ منتقِلِ[88]

---

(83) لم أعثر على المصدر.

(84) لم أعثر على المصدر.

(85) لإسحاق الموصلي: من قصيدة مطلعها:

سلام على القبر الذي لا يجيبنا ونحن نحيي تربه ونخاطبه

(86) ديوان الإمام علي بن أبي طالب، تحقيق الدكتور رحاب خضر عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت 1992، ص91.

(87) لم أجد هذه الرواية في الكتب التي رجعت إليها.

(88) ورد الشطر الأول في الديوان، ص308.

ترجو البقاء بدار لا ثبات لها .....

هذا من زيادة الإيضاح والتفسير لما حث عليه من القناعة وزجر عليه من الاشتغال بالدنيا، والمعنى يا وارداً سؤر عيش راجياً البقاء في دار الفناء، وآملاً إقبال العيش الممزوج بصفو الهناء في دار لا بقاء بها، بل الفناء وصف لازم لها ولمن عليها، أمالك بصر تنظر به في تغير أحوالها، وبصيرة ترشدك إلى سرعة زوالها لكونها أشبه شيء بالظل في سرعة الانتقال، بينما هو ممدود يعجب من أوى إليه إذا أزالته الشمس في الحال، قال:

ما أقصر الدنيا على مسرها كالظل ما أسرع مر الظلال
فافطن لها حزماً ففي ظلها ما قال يوماً حازم حيث قال
ما يقظات العيش إلا كسراء الـــدهـــر إلا حـــيـــال[89]

وإنما أورد المثال على طريق الاستفهام لينبه المخاطب على الخطأ، وليكون فيه إشعار بأنه أعرف بهذا المعنى المستفهم عنه من المتكلم، وليكون ذلك حملاً له على الإقرار بالمطلوب، لأن هذا نوع من الإلزام لطيف المسلك، لا يقدر على دفعِهِ، بل يضطر إلى الإقرار به، وهو نوع من البلاغة يسمى بالمذهب الكلامي، وتحقيقه أن تقول لا تطمع في الخلود في دار لا ثبات لها، كما لا تطمع في بقاء الظل، لأنها مثله فهذه الحجة على صورة القياس الاقتراني المسمى عندهم تمثيلاً ويمكن ردها إلى الاستثناء بأن تقول لو كانت الدنيا باقية لكان الظل باقياً، واللازم باطل فالملزوم مثله.

ويا خبيراً على الأسرارِ مطَّلِعاً أصمُتْ ففي الصمتِ مَنْجاةٌ من الزَّلَلِ

هذه وصية لمخاطبه بكتمان السر، واجتناب إذاعة ما أجمع عليه من الأمر، والمعنى يا من هو خبير بالأسرار، مطلع على حقائقها وعارف بالأحوال، فتكشف على جلائلها ودقائقها، اصمت ولا تبد لأحد شيئاً من ذلك، فإن في الصمت موضعاً للنجاة، أو فإن في الصمت نجاة من كثير من المهالك، ولا شك أن إفشاء السر قد يترتب عليه مفاسد لا تحصى كثرتها، وأمور يتعسر أو

(89) لم أعثر على قائله.

يتعذر تداركها، في الحديث: «**من أسر إلى أخيه سراً لم يحل له أن يفشيه**»[90].

وقال بعض الحكماء: سرك أسيرك ما دام عندك، فإذا أطلقته كنت أسيره[91]، وقال سيدنا عمر : من كتم سره كان خياره بيده، ومن تعرض للتهمة فلا يلومن من أساء الظن به[92].

وقال عمرو بن العاص: ما أفشيت سري لأحد فأفشاه ولمته عليه، لأني كنت أحق باللوم منه حين أفشيته له[93]. ومثله قول الشاعر:

إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسه فصدر الذي يستودع السرَّ أضيقُ[94]

وأما الصمت فلا شك أنه محمود في الجملة، ولا سيما حيث لا حاجة تدعو إلى الكلام، وفي الحديث: «**من إسلام المرء تركه ما لا يعينه**»[95].

وقال حكيم: لساني سبع إن أطلقته أكلني[96]، وقال غيره: رب كلام أوردك مورد القتال، وأوردك مورد القذال[97]. وقال غيره: يا بني قفاك مما يقرع

---

(90) لم أجده في كتب الصحاح، ووجدته في بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، لابن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية بيروت، م2 ص460.

(91) هذا القول ينسب إلى الإمام علي ـ ـ ينظر المستطرف في كل فن مستطرف، لشهاب الدين الأبشيهي، المكتبة التوفيقية ص228، وفيه وردت الحكمة هكذا.

(92) بهجة المجالس وأنس المجالس م2 ص460.

(93) ينسب هذا القول إلى عمر بن الخطاب ـ ـ مع اختلاف في الرواية، ينظر المستطرف ص229. كما ينسب إلى عمرو بن العاص مع اختلاف في الرواية، ينظر بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس م2 ص462.

(94) ديوان الإمام الشافعي، جمعه وحققه وشرحه الدكتور اميل بديع يعقوب دار الكتاب العربي 1991، ص104.

(95) ورد هذا الحديث في كتاب الزهد في سنن الترمذي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعينه**» قال أبو عيسى: وهكذا روي غير واحد من أصحاب الزهري عن أبي هريرة، عن علي بن الحسين عن النبي ﷺ نحو حديث مالك مرسلاً، وهذا عندنا أصح من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة، وعلي بن الحسين لم يدرك علي بن أبي طالب. ينظر سنن الترمذي ج1/ ٢٤٢ وما يليها.

(96) هذا القول لبكر بن عبد الله المزني، ينظر بهجة المجالس م1 ص79.

(97) لم أعثر على المصدر.

قفاك، وإنما يحسن الصمت عما لا ينبغي للمرء أن يشتغل به[98]، كما يفيده الحديث المتقدم.

قد رشحوكَ لأمر إن فطنتَ به[99] فاربأْ بنفسِكَ أن ترعى مع الهَمَلِ

هذا تحذير لمخاطبه من الاغترار بأعدائه الذين يسعون في هلاكه، ويتربصون به الدوائر، والمعنى إن تعاطيت الأمور مع بني الزمان، وأظهروا لك البشرى على وجوههم، وأروك أنهم استقبلوا بك أمراً تسر به وتحمد عاقبته فاحذر منهم، ولا تركن إليهم فإنهم إنما أهلوك لأمر حقير قبيح، لست من أهله، فإن فطنت لمرادهم منك فاربأ بنفسك، يقال اربأ ربئاً إذا رفع نفسه عن الأمر لحقارته أو من ربأ القوم إذا حرسهم، ومنه الربئة للطليعة، أي فاهرب بنفسك أو فاحفظ نفسك من أن ترعى مع الهمل، وإنما اضمرهم ولم يصرح بهم خوفاً من اطلاع السامعين، أو تحقيراً لشأنهم حتى كأنه لم يقدر أن يجريهم على لسانه لقذارة أسمائهم عنده، قال المتنبي:

وكن على حذر للناس تستره ولا يغرك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء فما تلقاه في عدة وأعوز الصدق في الأخبار والقسم[100]

وقال القاضي الأرجاني:

ولا أغر ببشر من وجوههم وربما غرَّ حب تحته شبك[101]

وقال[102] المعري:

فَظُنَّ بسائرِ الإخوان شراً ولا تأمن على سر فؤادا[103]

وقال[104] غيره:

---

(98) لم أعثر على المصدر.

(99) وردت في الديوان (له).

(100) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري، البغدادي، ج2 ص507.

(101) الغيث المسجم، م2 ص448.

(102) زيادة.

(103) سقط الزند، لأبي العلاء المعري، ص197.

(104) زيادة.

وما كل من يبدي البشاشة كائناً أخاك إذا لم تلفه لك منجدا[105]

في الحديث: إنا لنكشر في وجوه قوم، وإن قلوبنا لتلعنهم أو لتقليهم أو كما قال ﷺ[106]. وهنا انتهى المقصود بمعونة الله والحمد لله رب العالمين، بقلم مؤلفه[107] الفقير إلى ربه الغني، المكي بن محمد بن علي كان الله له خير ولي، ثم رقم الشرح في يوم الثلاثاء 3 من ذي الحجة عام 1352 بخط كاتبه أفقر الخلق إلى مولاه، عبد ربه محمد بن المكي بن ناصر العوفير غفر الله له ولوالديه ولأشياخه، ولجميع المسلمين الذنوب، وستر عنهم العيوب بجاه خير البرية، سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية، والحمد لله رب العالمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(105) البيت من الشواهد النحوية استشهد به ابن عقيل في باب ما يتصرف من كان وأخواتها يعمل عمل الماضي، ولم أقف له على نسبة إلى قائل معين.

(106) نص الحديث موقوفاً على أبي الدرداء قال «إنا لنكشر في وجوه أقوام ونضحك إليهم، وإن قلوبنا لتقليهم أو تلعنهم»، ينظر صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير اليمامة، بيروت 1407هـ/ 1987م، ط3، تحقيق مصطفى الديب البغا، ج5/ 2271، باب المداراة مع الناس، ويذكر عن أبي الدرداء إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم ذكره البخاري في ترجمة الباب، وهو ما يسمى بالحديث المعلق وابن كثير في تفسيره ج1 ص358، وعزاه للبخاري في الصحيح معلقاً، دار الفكر بيروت 1401هـ. وتفسير القرطبي، دار الشعب، القاهرة 1972م ط الثانية، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، ج19/ 45.

(107) كان حقه أن يقول مختصره لأن أصل التأليف لأبي جمعة الماغوسي كما تقدم.